

أسس الإصلاح عند البشير الإبراهيمي: علاقة المعرفة بالمجتمع

The foundations of reform according to Bashir Ibrahimi

The relationship of knowledge to society

د. واحك مراد^{*1}

m.ouahek@hotmail.com¹

جامعة خميس مليانة

تاريخ الإرسال: 2022/12/11 تاريخ القبول: 2023/02/22 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص:

تبحث هذه الدراسة إلى قراءة فكر البشير الإبراهيمي في كليته والبحث عن مرتكزاته الأساسية كتحرير العقل الفردي والمجتمعي من معطّلاته الفكرية والعقدية التي تكبله من النهوض الحضاري والمشكلة التي نركز عليها هنا: البحث عن جوهر الإصلاح الذي يختصر لنا الطريق نحو تحقيق النهضة المرجوة. تهدف الدراسة إلى إعادة قراءة فكر جمعية العلماء المسلمين بوصفه يحمل الخطوط العريضة للنهضة الإسلامية، أما المنهج المعتمد في بحثنا فهو المنهج التحليلي المقارن. ومن نتائج الدراسة: نلاحظ وجود نظرة متقدمة راهنية لتعليمية العقيدة وباقي العلوم، وأيضا توظيف الوسائل الممكنة المتاحة كالشعر الملحون من أجل الإصلاح الاجتماعي، وأنّ النهضة تكون من خلال ربط المعرفة بالمجتمع.

الكلمات المفتاحية: الإصلاح؛ الصوفية؛ الإسلام؛ التعليم؛ النهضة.

Abstract:

This study seeks to read Bashir Ibrahimi's thought by searching for its basic foundations, such as liberating the individual and societal mind from its intellectual obstacles that prevent it from advancing civilization. The problem that we focus on here: searching for the essence of reform that shortens the path for us in achieving renaissance. The study aims to re-read the thought of the AssociationMuslim scholars as it carries the broad outlines of the Islamic renaissance.

The methodology that we adopted in our research is the comparative analytical method. Among the results of the study: We note the existence of a current advanced view of teaching the faith and the rest of the sciences, and also the use of possible available means, such as popular poetry, for social reform.

Keywords:reform;Sufism;Islam;Education, renaissance.

1. مقدمة:

لا شك أنّ كل أمة تمر في تاريخها على فترات فتور ووهن وضعف يجعلها تغيب من صنع المشهد الحضاري العالمي. والعالم الإسلامي يعرف هذا الوهن¹. لكن هذا الغياب لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، فقد يحدث في لحظة تاريخية ما - بسبب عوامل ذاتية أو خارجية- أن تستعيد الأمة وعيها بذاتها ومن ثمة تفكر في كيفية الانطلاق مجددا. فالانبعاث مجددا في لحظة اليقظة لابد أن يمر على ضرورة الوعي بالواقع التاريخي الذي تعيش فيه الأمة، وما يتطلبه من خطط و خطوات مدروسة لتغييره وإصلاحه، هكذا حاولت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فهم واقع الأمة الجزائرية في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين من أجل النهوض بواقع الإنسان الجزائري، نهضة تماثل النهضات التاريخية الكبرى، كانهضة الإسلامية التي انطلقت بوحى القرآن ، أو كانهضة الأوروبية الحديثة، أو كالانطلاقة اليابانية المعاصرة. قد أدرك رواد الجمعية أنّ تحقيق المعنى العميق للنهضة والثورة والتحرير لا يمكن أن يتم بجهود رجل واحد كما فعل ذلك الأمير عبد القادر، ولا يمكن أن يتم بإرادة زعيم قبيلة تتبعه العشائر والبطون، كهبة الشيخ أحمد بوزيان ضد المستعمر. فهؤلاء الرجال والزعماء ربما قد جاؤوا في زمن متأخر، وباطلا هم يحاولون التغلب على عوامل الانهيار الحضاري التي هي أكبر من جهودهم بكثير، ولو أنّ أعمالهم كانت في زمن المجد من حضارتهم لكان لها تأثير كبير. وهذا ما يفسر فشل محاولات المقاومة الشعبية في إحداث نهضة أو تغيير.

¹ - اخترنا مفردة الوهن الحضاري نسبة الى الحديث الشريف: "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أَفْقٍ ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَمِنْ قَلَّةٍ يَوْمُئِذٍ ؟ قَالَ لَا ، وَلَكِنْكُمْ غَنَاءٌ كَغَنَاءِ السَّيْلِ ، يُجْعَلُ الْوَهْنُ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَيُنَزَّعُ الرُّعْبُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ ؛ لِخَبْكُمُ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّتِكُمُ الْمَوْتِ الرَّاوي : ثوبان مولى رسول الله ﷺ | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم | 8183 : خلاصة حكم المحدث : صحيح من موقع الدرر السنية، موقع:

إنّ فشل مشروع محمد علي التحديثي في مصر، ومشروع دولة الأمير عبد القادر في الجزائر لا يفسّر فقط بتدخل العامل الخارجي المتمثل في الاستعمار، بل أيضا كون هذه المشاريع جاءت قبل أوانها، ولم يُهيأ لها البيئة الاجتماعية الحاملة لها. فعوامل الحضارة "ترتبط فيما بينها إلى درجة الاندماج، حيث أنّ أي خلل يُصيب إحداها قد يُسبب خللاً في العوامل الأخرى، وأي هبوط في هذا العامل سيؤدي بالتالي إلى هبوط العوامل الأخرى، تماماً كما النار التي لا يُمكن إشعالها إلا بوجود العناصر التي تؤدي إلى الاشتعال وهي: الأوكسجين والوقود فإذا نقص عنصر من هذين، تتحوّل الشعلة إلى ظلام وتُصبح رماداً في الهواء"¹.

هكذا وعت جمعية العلماء المسلمين دور المجتمع ككل في النهضة، وأنه حامل التحرير الحقيقي² ويعتبر البشير الإبراهيمي أهم رجالات الجمعية ومن مؤسسيها، وأحد الذين صاغوا برنامجها الفكري والعملية، فقد شغل نائباً للجمعية من سنة 1931 إلى غاية 1940 ثم رئيساً لها من 1940 إلى غاية 1965. وبالتالي سيكون الاطلاع على فكر البشير الإبراهيمي في مجموع أعماله الكاملة والتي حقّقها ابنه طالب الإبراهيمي، منهجنا لفهم المسار الإصلاحي لجمعية العلماء وللتعرف على فلسفتها الإصلاحية بعامة. لهذا نعتقد أنّ البشير الإبراهيمي سيكون أنموذجاً مثالياً لفهم أعمال الجمعية، والسؤال الذي نطرحه في بحثنا هذا هو: ما هي نقاط الارتكاز الأساسية للمشروع النهضوي عند جمعية العلماء المسلمين، وكيف يفهم البشير الإبراهيمي وجمعية العلماء النهضة، فهل تتعلق النهضة ببناء الفرد والاعتناء بإصلاح وعيه الديني والأخلاقي أم تتعدى إلى الاهتمام بمجالات أخرى؟. فرضيتنا الأساسية في هذا البحث: أنّ عمل الجمعية على مستوى إصلاح عقائد الناس وسعها لإزالة الكثير من المفاهيم الاجتماعية الخاطئة، كان له تأثير في المجتمع الجزائري بإعلانه الثورة على فرنسا في

¹ - سحر ناصر، لماذا تسقط الحضارات؟، موقع إسلام أونلاين.

² - يقول العربي بن مهيدي، ألقوا الثورة إلى الشارع فسيحتضنها الشعب، قالها قبل الثورة بأسابيع وهو يخاطب رفاقه، انظر: بحث بعنوان: الذكرى السابعة والأربعون لاستشهاد البطل محمد العربي بن مهيدي، 3 مارس 1957 - 3 مارس 2004

1954، فالجبرية كعقيدة استسلامية كانت سلاحا توظفه فرنسا لبقاءها في الجزائر، لهذا فإنّ التحرير الأهم: هو التحرر من الجبرية التي كانت كأيديولوجيا خفية يتأسس عليها الوجود الفرنسي.

الفرضية الثانية لبحثنا، أنّ جمعية العلماء كان لها مشروع نهضوي تأسيسي يحاكي مشروع النبي عليه السلام في الدعوة وتأسيس الدولة، حيث تنطلق من مبدأ التدرج في الإصلاح.

الفرضية الثالثة: نعتقد أنّ من يمثل بحق مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو البشير الإبراهيمي، فقد كانت وظيفته فيها بين النائب والرئيس، كما ترك لنا مجموع أعماله الكاملة والتي تفصح عنه.

منهجنا الموظف في هذا البحث: في الحقيقة هناك الكثير من الدراسات حول البشير الإبراهيمي، وحول أعمال الجمعية، لذلك فضلنا التعامل مباشرة مع نصوص البشير الإبراهيمي، وعدم الاعتماد على القراءات المختلفة لفكره وهي موجودة بكثرة سواء على مستوى الكتب أو على مستوى المقالات والمواقع الالكترونية. وقد التزمنا بالمنهج التحليلي لاستنطاق نصوص الإبراهيمي

من حيث هدف البحث: نعتقد أنّ فكر البشير الإبراهيمي لا يزال فكرا خاما من حيث عدم استنطاق نصوصه الكثيرة في قضايا التعليم والاقتصاد والدعوة والإصلاح الاجتماعي. وهذا ما نستكشفه مثلا في استنطاق نصوصه حول الإصلاح التعليمي، وهدفنا تبين أنّ النصّ الإصلاحي لدى البشير الإبراهيمي قادر على انتاج نصوص جديدة نستلهمها من أجل توظيفها في مشروع الجزائر الجديدة.

2. البرنامج الإصلاحي الشامل لجمعية العلماء المسلمين:

2-1 حول أسباب تأسيس جمعية العلماء:

يروى البشير الإبراهيمي في سيرته، أنه في سنة 1920 تم التفكير والتشاور حول فكرة تأسيس جمعية تكون حاضنة للإصلاح الديني والاجتماعي، وخاصة وأنّ الجزائر هي أكثر البلاد الإسلامية بحاجة إلى علماءها من أجل إخراجها من وضعها الحضاري المتخلف، لذلك قرر الإبراهيمي مع مجموعة من العلماء على تكوين جمعية تكون في خدمة الدين والعلم، وقد تناسب تأسيسها مع مرور قرن كامل لاحتلال فرنسا للجزائر. هكذا " جاءت سنة 1930 حدا فاصلا بين الماضي والحاضر، ففيها تم للاحتلال الفرنسي من العمر مئة سنة وأقامت فرنسا المهرجانات ابتهاجا بذلك وسخطت الأمة العربية الإسلامية على ذلك"¹

لقد كان هدف ابن باديس والإبراهيمي إنشاء جمعية، تهتم بالشؤون الدينية والعلمية والأخلاقية للجزائريين، دون الخوض في غمار السياسة بما يجلبه هذا الميدان من مخاطر ومآزق على مصير الجمعية من طرف السلطات الفرنسية، فتحرير الفرد سابق عن تحرير البلاد، والفرد أولى بهذا التحرير، لأنّه قابع تحت نير الخرافات والانحرافات الفكرية والعقدية، الشيء الذي جعله سهل الانقياد والخضوع للاستعمار. كان تفكير الإبراهيمي وابن باديس تفكير يتسم بطول النظر، لأنّه ينظر إلى رؤية نتائج أي إصلاح في المستقبل البعيد دون التسرع في تحصيل ثماره فوراً. يُعرب الإبراهيمي عن هذا بقوله: " في هذه الفترة ما بين 1920 و1930 كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي سطيف، أو أزوره في قسنطينة، فنزن أعمالنا بالقسط ونزن أثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، من أنا ، ص 20

للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجآت حسابها، فكانت هذه السنوات كلها إرهاباً لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين¹

إذن، تأسست جمعية العلماء الجزائريين في سنة 1931 وشغل فيها البشير الإبراهيمي نائباً، عن رئيسها عبد الحميد بن باديس. وفي 1940 انتخب الإبراهيمي وهو في حال الاعتقال رئيساً لها بعد وفاة الشيخ ابن باديس، أما عن انجازاته بعد خروجه من السجن فيقول الشيخ: "وكان من أعمالي بعد خروجي من الاعتقال ثلاثة سنوات أن أسست في سنة وبعض السنة نحو سبعين مدرسة عربية حرة متفرقة في جهات القطر بمال الأمة، وقد وصل عدد المدارس الابتدائية الحرة التي أسستها الجمعية بسعي وإشرافي وبمال الأمة الخالص نحو مائة وخمسين مدرسة... وتحتوي هذه المدارس على نحو خمسين ألف تلميذ وعلى نحو أربع مئة معلم يتوجها معهد ثانوي ضخماً يأوي نحو ألف تلميذ"²

2.2 الجانب النظري في البرنامج الإصلاحي للجمعية:

لقد قلنا أنّ تفكير ابن باديس والبشير الإبراهيمي انصبّ حول إنشاء جمعية للعلماء، تقود الإصلاح في الجزائر دون أن تستعجل تحصيل النتائج على نحو فوري، لذلك اتفق شيوخ الجمعية على وضع خطة إصلاحية، لاسترجاع هوية الأمة الجزائرية من جديد واستعادة دورها المسلوب، وذلك بإتباع برنامج ينقسم إلى نظري وتطبيقي، فالنظري يتضمن الإطار التصوري العام التي يتحرك فيه علماء ومنتسبي الجمعية في خطتهم الإصلاحية وفي ممارستهم لأعمالهم وقد اتفق رواد الجمعية من بينهم البشير الإبراهيمي على قواعد نظرية كبرى يسير عليها عملهم الإصلاحي منها:

¹ - المصدر نفسه ، ص 41

² - مجد البشير الإبراهيمي، من أنا ، ص ص 22، 21.

- أن " تجري الجمعية في جميع أعمالها الآتية على أربع قواعد: تقديم الأهم على المهم - ما لا يدرك كله لا يترك كله. - درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة - قليل العمل خير من كثير القول¹. بعبارة أخرى، تنطلق الجمعية في عملها الإصلاحي من الأهم والضروري كتعليم الناس العلم والعقيدة والسلوك الصحيح الذي يحتاجه الأفراد في حياتهم اليومية، والابتعاد عن القضايا الفكرية والمسائل البعيدة عن اهتماماتهم كمسائل الأسماء والصفات الإلهية، والقاعدة الثانية: الواقعية في تحديد الأهداف، فما لا يدرك كله لا يترك كله، كما أن قاعدة درء المفسدة مُقدم على جلب المصلحة يعني عند الجمعية: عدم الدخول في مواجهة مباشرة مع الاستعمار الذي يمكن أن يُضَيِّق على الجمعية ويغلق جميع مدارسها ونواحيها ويحدّ من اجتماعاتها مما يكون له اثر سيئ على المجتمع الجزائري، أما القاعدة الرابعة أن يلتزم العلماء والمعلمون بتحويل الأخلاق والفضائل إلى أمور عملية وتطبيقية في مختلف شؤون حياتهم حتى يكون لها التأثير البالغ والعميق في نفوس العامة من الناس.

- وما تلتزم به الجمعية في فلسفتها النظرية الإصلاحية " أن تجري في الديني منها خاصّة على الرجوع إلى صريح الكتاب وصحيح السنّة، ثم الرجوع إلى الإجماع الثابت والقياس الجلي فيما لا نصّ فيه، ثم الترجيح فيما اختلفت فيه الأنظار والاجتهادات"². وهذا معناه استعادة المعنى الإصلاحي الذي دعي إليه محمد عبده ورشيد رضا ومحمد عبد الوهاب.

- وما تلتزم به الجمعية في فلسفتها النظرية الإصلاحية كذلك أن "تجري في الاجتماعي منها خاصّة على قواعد: ما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ، وأنّ مستقبل الأمة إنما يُبنى على ماضيها، وأنه لا تنافي بين الإسلام والمدنية الصحيحة بل هو روحها وخلاصته"³. هذه هي العناوين الكبرى لنظرية الإصلاح والنهضة عند جمعية العلماء، حيث تمثل الميادين التي يجب أن يشتغل عليها العمل الإصلاحي كالمجال الديني والاجتماعي والدعوي.

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص84

² - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص84

³ - المصدر نفسه، ص84.

3.2 الجانب التطبيقي في البرنامج الإصلاحي للجمعية :

بعد أن حددت الجمعية النقاط النظرية الكبرى لفكرة الإصلاح، عملت على تجسيدها في أرض الواقع، فالانتقال من النظري إلى التطبيقي هو أهم مرحلة في عملية الإصلاح ككل، يتعلق الأمر بكيفية التغلغل إلى عمق المجتمع الجزائري ونشر هذه الأفكار التنويرية الإصلاحية في أوساطهم، والفكر الذي لا يلامس الواقع وليس له أدوات ووسائل للتغلغل في المجتمع يبقى مجرد نظريات مجردة، ولما كون جوهر عملية الإصلاح يقوم على "إحياء فريضتي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على وجهيهما الديني"¹. والتي تعمل على الارتقاء بمستوى الإنسان الجزائري على مستوى التفكير والسلوك، والتي تسرع من انتشار الوعي الاجتماعي، أشار نائب جمعية العلماء المسلمين البشير الإبراهيمي إلى مجموعة من الخطوات العملية والتطبيقية لتحويل الفكرة الإصلاحية من بعدها النظري إلى بعدها التطبيقي.

يقول البشير الإبراهيمي "ومن الوسائل التي تستخدمها لهذه الغاية أولاً: تأليف لجان مؤقتة بحسب ما يسعه الجهد، ولو من العوام المتدينين، يقومون بالدعوة اللسانية لترويج هاتين الفريضتين....الإيعاز إلى الصحف أن تكتب هاتين الجملتين بحروف كبيرة، مجردة أو مقرونة بجملة تقتضي التأمّر والتناهي والتواصي، وللكتاب أن يتعاهدوا هذا الموضوع بالكتابة فيه....الإيعاز إلى شعراء الملحون أن ينظموا قصائد ومقاطيع تتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، إلى أن يقول " وأن يكون المحاضر المتجول مبشراً لا منفراً، وأن لا يخرج في أحاديثه الخاصة والعامة على منهج الجمعية، وأن يكون ملماً بالدخائل النفسية لسكان تلك الناحية حتى يعرف من أين

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص ، ص 85

يأتيهم"¹. إن مشروع جمعية العلماء المسلمين الإصلاحي الشامل هو مشروع لا يمكن أن يقوم به إلا مؤسسات تُرعى من طرف الدولة والتي تملك من الوسائل والإمكانيات ما يؤهلها لذلك، ولكننا نرى أن الجمعية حاولت الانطلاق من إمكانات الواقع لتغييره، فواقعية جمعية العلماء يتمثل في كونها حاولت استغلال الموارد الموجودة، كالاكتفاء على شعراء الملحون والصحف القليلة لنشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد فهمت جمعية العلماء المسلمين الواقع الجزائري على نحو واضح ودقيق، فهو نتاج ظروف استعمارية سمحت بانتشار الجهل والخرافة بل وتم نسيان وتغييب الإسلام وشعائره وأمام هذا الغياب أدى إلى ظهور سلوكات غير سوية في أوساط الأفراد، ولم يبق للإسلام في الجزائر غير اسمه. ف"هذه الوسائل نفسها تتوسل الجمعية لإماتة البدع والخرافات المخالفة للدين، ولإحياء السنن الصحيحة الثابتة، ولمقاومة المحرمات الضارة كالخمر والميسر والزنا والسرقة، وقتل النفس، والتزوّج في العدة، وعضل البنات، وكل أموال اليتامى، والرشوة، وحرمان النساء من الميراث، وحبس المطلقات عن التزوّج، والإسراف في غير الخير، والعوائد الفاشية في المآتم والأعراس، والكذب والغيبة والنميمة، وتعويد اللسان على الطلاق واليمين. ولإقامة الفرائض المتروكة كالصلاة والصوم والزكاة. التزوّج، والإسراف في غير الخير، والعوائد الفاشية في المآتم والأعراس، والكذب والغيبة والنميمة، وتعويد اللسان على الطلاق واليمين. ولإقامة الفرائض المتروكة كالصلاة والصوم والزكاة"² ويمكن أن نستنبط طبيعة الأدوات والوسائل المستعملة في الإصلاح عند جمعية العلماء المسلمين في النقاط التالية:

- توظيف علماء ودعاة يفهمون نفسية المجتمع الذي يقيمون فيه، بحيث يخاطبونهم باللغة وبالأسلوب الذي يؤثر فيهم والابتعاد عن اللغة الصعبة وذلك كما جاء في قول إبراهيمي:

¹ - المصدر نفسه، ص، 85

² - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص، 85.

"وأن يكون ملماً بالدخائل النفسية لسكان تلك الناحية حتى يعرف من أين يأتيهم"، ومعناه أن يكون العالم والداعية مخالطاً للناس حتى يفهمهم لكي يستطيع أن ينتج خطاباً يلائم مستواهم المعرفي والنفسي والاجتماعي.

- توظيف الشعر العامي والملحون في الإصلاح، وذلك بتوظيف شعراء الملحون في نظم قصائد تنهى عن المنكر وتأمّر بالمعروف، وهذا يعني استغلال ما يمكن استغلاله في عملية الإصلاح، وخاصة وأنّ الشعر الملحون والشعر الشعبي الأقرب إلى مخيلة الناس من حيث الاستجابة وله تأثير عميق في نفوس الافراد.

- توظيف الصحافة من أجل نشر مبادئ الإصلاح الديني والاجتماعي.

3. مجالات الإصلاح:

1.3 بعث مبدأ الروح:

يدرك البشير الإبراهيمي جيداً أنّ حركة أي مجتمع في التاريخ لا تكون إلا بروح تعيد له حيويته ونشاطه، روح عندما يتمثلها تقفز به من واقعه المترهل إلى وضع حضاري فاعل، ولكن أين نجد هذه الروح؟ أفي الحضارة الغربية بمحاكاة قيمه وأنماط حياته؟ أفي الشرق الأدنى: في بوذيته وممارساتها، كما تتمثلها اليابان والصين؟. لأنّ "الحضارة تبدأ في اللحظة التي تستيقظ فيها الروح بكل إمكانياتها وتبدأ في النضج والتشكل، ذلك أنّ الحضارة تظهر للوجود وهي تحمل صورة وجودها، فإذا أرادت أن تحقق صورتها فما عليه إلا أن تنظم ذلك الخليط الموجود على ارض الواقع، ذلك أنّ الحضارة روح تكمن فيها القوى الخصبة المتوثبة للتحقق تخرج إلى الوجود في بيئة خارجية في حالة فوضى مطلقة فتشيع النظام وتطبع ما حولها بطابعها"¹.

¹ -بروال جمال، نظرية الحضارة عند اشبنجلر .

لا يبتعد بنا البشير الإبراهيمي عن هذا المعنى ليزكرنا قائلاً: "هذه الروح القرآنية اندفعت تلك النفوس بأصحابها تفتح الآذان قبل البلدان، وتمتلك بالعدل والإحسان الأرواح قبل الأشباح، وتعلن في صراحة القرآن وبيانه حقوق الله على الإنسان، وحقوق الإنسان في ملك الله، وحقوق الإنسان على أخيه الإنسان. إنّ الذي صنع هذا كله- وأبيك- للقرآن.¹ هكذا فإنّ القرآن يمثل بالنسبة إلى المسلمين لحظة اليقظة الأولى، إنّهُ خطاب إنساني يتجاوز العرق واللغة والعصبية ليكون خطاب شامل وعام لكل الناس، ولأنه كان كذلك، فقد أسّس دعوته على أساس العدل والمساواة، فجميع الناس سواسية أمام الله، وكل المفاضلات بين الأعراق والأنساب والعصبيات هي مفاضلات مزيفة، وحدها مفاضلة التقوى هي المفاضلة التي يتم الاعتراف بها، لهذا ومن دون أي شك ، يمثل القرآن دستور المدنية الحقيقي الذي سبق دستور الغربيين في مساواة الخلق والناس أمام بعضهم وأمام الله.

ولكن لماذا لم نعد نرى تأثير القرآن على النفوس كما كان الحال مع المسلمين الأوائل والذي ساهم في تأسيس حضارتهم؟ من هو المسؤول عن هذا التغييب؟ وبسببه لم يعد القرآن كروح باعثة على بناء الحضارة والإنسان، وتحول إلى مجرد آيات تتلى على الأموات. يتساءل الإبراهيمي قائلاً: "ولكن ما هو هذا القرآن الذي نكرره في كل سطر؟ أهو هذه الأحزاب الستون، أو الأجزاء الثلاثون التي نحفظها وننفق على حفظها سنوات الطفولة العذبة، وسنوات الشباب الزهر. ثم لا يكون حظنا منه عند هجوم الكبر إلا قراءته على الأموات بدرهمات"². إنّ سؤال البشير الإبراهيمي عن ما هو هذا القرآن؟ هو سؤال يبحث عن ماهية الخطاب القرآني ؟. والبحث عن الماهية في سياق كلام البشير الإبراهيمي، يعني بحث عن الوظيفة التي تنزل لأجلها؟ وبالتالي ستكون الإجابة صادمة لهؤلاء الذين يوظفونه في غير ما أنزل لأجله، يجيب البشير الإبراهيمي بقوله "ولكن سر القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف الذي نحفظه، ولا في هذه التلاوة الشلاء التي نتلوها، وليس من المقاصد التي أنزل لتحقيقها

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص 159 .

² -- البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة ، ص 160

تلاوته على الأموات، ولا اتخاذه مكسبة، والاستشفاء به من الأمراض الجسمانية. وإنما السر كل السر في تدبره وفهمه، وفي اتباعه والتخلق بأخلاقه. ومن آياته ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ص: 29)، ومن آياته ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: 3) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: 155) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام: 153) ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (آل عمران: 103)¹.

ومن المؤكد أنّ خفوت وتلاشي صوت الروح الباعث على العمل، والتخلق بالفضائل، والانتظام العقلاني في التدبير المؤسساتي والعمراني في شعب من الشعوب يضمن بالضرورة وجود رذائل مسيطرة وهي: التواكل والكسل، والسلوكات غير الأخلاقية، والفوضى الاجتماعية. وبحسب الإبراهيمي، إنّنا نرى في الجزائر وفي العالم الإسلامي تعطلّ المبدأ الروحي الذي كان سببا في تأسيس الحضارة الإسلامية والتي قدّمت إسهامات ايجابية في تحرير الإنسان من العبودية بأنواعها، كما كانت هذه الحضارة سببا في الدفع بحركة التقدم العلمي والاجتماعي للإنسانية إلى الأمام، وبدل من الحفاظ على قمة فاعلية هذه الروح في تأثيرها على المسلمين من اجل البقاء في مقدمة سلم الريادة الحضارية، من خلال إتباع تعاليم القرآن وإرشاداته وهديه في حياة الأفراد والمجتمعات والدول، بدل من ذلك تم تحويل القرآن العظيم إلى تلاوات تقرأ على الموتى، وللرقية الشرعية وتلقي الأجر المادي على ذلك.

2.3 نقد النزعة العرفانية:

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص 159، 160

السؤال يعاد طرحه مجددا هنا، ما الذي غيّب هذه الروح الباعثة على التقدم في المسلمين؟ من الذي عطّل القرآن ليكون باعثا على حياة المسلمين من جديد؟. يُوجّه البشير الإبراهيمي أصابع الاتهام إلى الصوفية، أو الطرقية، فهم وحدهم من يتحمّلون هذا التغييب من خلال الطقوس والشعائر البديلة التي جعلوها في محل القرآن، فمن خلال ما قدّموه من بدائل عن القرآن الكريم، تمت إزاحته من نفوس المسلمين وبالتالي كفّ من التأثير عليهم، سواء في أقوالهم أو في أفعالهم. يقول البشير الإبراهيمي: " وإذا كان هذا القرآن متعبداً بتلاوته اللفظية وهو ستون حزباَ فإنّ تلاوة إنجيل التيجاني القصير وهو صلاة الفاتحمة واحدة تعدل ستة آلاف ختمة من القرآن. وإذا كان القرآن قد شرع الغزو وهو من أحمز الأعمال وأشقى، فإن تلاوة هذا الإنجيل التيجاني مرة واحدة تعدل آلاف الغزوات، وهي لا تقوم إلا على حركة اللسان من غير اقتحام للميدان، ولا تعرض للرمح والسنان. وإذا كان القرآن يفرض الحج وفيه ما فيه من مصاعب ومتاعب، فإن انجيل التيجاني تعدل تلاوته آلاف المرات من الحج ومئات الآلاف من الصلاة كما هو منصوص في كتب التيجاني وكتب أصحابه. فأَي تعطيل للقرآن أعظم من هذا؟ وأي تهوين لشعائر الإسلام ونقض لحكمها أكبر من هذا؟ وأي تزيين للتفلت من تلك الشعائر يبلغ ما يبلغه هذا الكلام من مثل هذا الدجال؟¹

يُبيّن لنا الإبراهيمي أنّ أصحاب الطرق الصوفية قد عطّلوا العمل والجهاد والحج من خلال ترديد أوراد معينة لشيخ من مشايخهم، والتي ليس لها أصل في السنة النبوية. فإشاعة هذه الأوراد* بين الناس سينشر فيهم روح التواكل والاستسلامية وعدم مجابهة المستعمر الفرنسي بالجهاد، بسبب اعتقادهم أنّ الاكتفاء فقط بتريد الورد إلى عدد معين، سيُجزّي ويعوض عن الجهاد والحج والعمل. من المؤكد كما يشير أحد الباحثين العرب المعاصرين، أنّ التصوف هو نزعة عرفانية وباطنية وهرمسية يعود إلى الموروث القديم السابق عن

¹ -البشير الإبراهيمي ، الأعمال الكاملة، ص 171 .

الإسلام¹ وأكد الإبراهيمي هذا الأمر بقوله: "وأما المذاهب الصُوفية فهي أبعدُ أثرًا في تشويه حقائق الدين، وأشدُّ مُنافاةً لروحِه، وأقوى تأثيرًا في تَفريق كلمة المسلمين؛ لأنَّها ترجع في أصلها إلى نَزعةٍ غامضةٍ مُهمَّمةٍ، تسرَّت في أوَّل أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرُّد من الأسباب، والعُزوف عن اللَّذات الجسديَّة، والتَّظاهر بالخصوصيَّة، وكانت تأخذُ مُنتجليها بشيءٍ من مظاهر المسيحيَّة، وهو: التَّسليم المُطلق، وشيءٍ من مظاهر البرهميَّة وهو: تعذيبُ الجسد وإرهاقه؛ تَوصُّلاً إلى كمال الرُّوح.. وأين هذا كُلُّه من رُوح الإسلاموهدي الإسلام؟²

يتجه البشير الإبراهيمي إلى نقد النزعة العرفانية والباطنية التي تمثلها الصوفية بمختلف طرقها، فقد أُمست هي النظام المعرفي الرئيسي في المجتمع الجزائري، وفي ظل غياب مدارس إصلاحية تنويرية تقدم الوعي الديني الصحيح، أصبحت الصوفية هي السلطة المعرفية الوحيدة المخوِّلة بتقديم التصورات والمعتقدات للفرد الجزائري، فكانت سببا في نشر قيم التواكل والاستسلام والخمول والإيمان بالخرافة. ولتفكيك المبدأ المعرفي العرفاني الذي يعتمد على تقسيم النص القرآني إلى باطن وظاهر، إلى شريعة وحقيقة، توجه الإبراهيمي إلى رفض شبكة المصطلحات التي توظفها الصوفية في بناءها المعرفي والتعبُّدي، لأنَّ " الآراء التي يفصح عنها المتصوفة في مسائل الاتحاد والفناء ووحدة الشهود ووحدة الوجود وحقيقة النفس واصلها ومصيرها...إنَّ ما يقوله المتصوفة بخصوص هذه المسائل لا يمكن التوصل إليه بمجرد تأمل النص القرآني والتعمق في فهمه، بل إنَّ أقوال المتصوفة في تلك المسائل مستمدة أساسا من الأدبيات الهرمسية"³ ولا شك أنَّ رفض الآراء الباطنية والشبكة المفاهيمية المستعملة في الخطاب العرفاني لا يكون إلا من خلال فهم القرآن الكريم بالمزاوجة بين منهج الظاهر وروح اللغة العربية، للقطيعة مع التفسيرات الرمزية والباطنية

¹ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص 162.

² - نقلا عن: حسن آيت علجت، موقف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من الصوفية.

³ - محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ص 213.

للقرآن الكريم التي أخرجته من دلالاته الصحيحة، ويتمثل هذا المنهج في فهم القرآن بالاعتماد على "روح القرآن وبيان السنة ودلالة اللغة والاعتبارات الدينية العامة ومن وراء ذلك: فطرة سليمة وذوق متمكن وإخلاص غير مدخول واستبراء للدين .. وعزوف عن فتنة الرأي وفتنة التأويل"¹.

استعادة الروح القرآنية وبعث فعاليتها في المجتمع لا يكون إلا من خلال استعادة طهارة النص وذلك بتخليصه من التفسيرات الكلامية والرمزية التي تراكت حوله، فما أحدثه الصوفية بمنهجهم العرفاني هو حجب للنص القرآني في دلالاته الأصلية، فتوصلوا إلى تفسيرات حتى جعلوا "الدين الواحد دينين"². فالتأويل وتعدد ديدته هو مصدر التفرقة والشقاق بين المسلمين، لأن كل تأويل يخلق أنصاره وأتباعه، وبالتالي كل جماعة تعتقد أن تأويلها هو الأحق أن يتبع. مما يخلق صراعا مجتمعيا لا يتوقف، بالإضافة إلى أن الزهدية الصوفية تعطل القوى العاملة الفاعلة في المجتمع وذلك بتخدير قوى الشعب بالأوراد وبفكرة الاستسلام إلى القدر. وهذا ما يثبّت التخلف ويؤبّد المستعمر. إن النسيان الذي تعرّض له القرآن عند المسلمين، ليس نسيانا متعلقا بتلاوته وبحفظه في الصدور وإنما نسيان يتعلق بالانحراف عن فهم دلالاته الحقيقية وما تدعو إليه من اجتهاد وعمل

3.3 إصلاح التعليم:

لقد ورثت جمعية العلماء المسلمين تعليما يقوم على الحفظ والتكرار، فالطالب المتخرج يخرج بشهادة حفظ للقرآن الكريم وإذا واصل تعليمه سيحفظ بعض أمهات كتب الفقه والشعر وبعض كتب علم الكلام يستعين بها في خطبه. أما التعليم في الزوايا الصوفية فيرتكز على تعليم كتب أسرار العارفين والاطلاع على تفاسير لأهم أعلام علماء الصوفية. وقد "جعل المستعمر التعليم محصورا في حفظ القرآن بكيفية تبعث السامة والملل، حيث

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ص 25

² -المصدر نفسه، ص33

يكلف التلميذ بحفظ ما يكتب من غير فهم ولا فكر ولا تطبيق،... يعني قرأنا بلا فهم ولا فكر ولا وعي ولا تطبيق، بل ولا جديد في معلومات الطالب اللغوية ولا الثقافية؛ فالمتعلم الذي لا يفهم ما يسمع أو ما يقرأ لا يضيف جديداً إلى مفرداته اللغوية ولا ثقافته الإسلامية، إذ "فهم معاني الألفاظ شرط لاكتساب اللغة والثقافة عموماً"¹

لذلك، فلا يمكن نجاح المشروع الإصلاحي ككل إلا بنجاح التعليم الذي يشتغل على تخريج النشء، لأنّ التعليم جوهر المدنية المعاصرة، فالإصلاح الديني وإن كان ضروري فهو يجب أن يتوازى في القيام به مع إصلاح أساليب التعليم، وعن أهمية التعليم وضرورته. يقول البشير الإبراهيمي: "إنّ الإصلاح العلمي هو ناحية من نواحي الإصلاح الكثيرة التي يجب أن تعطىها جمعية العلماء المسلمين فضل اهتمام واعتناء، ولو لم يحدث من الحوادث ما جعل اتجاه الجمعية إلى الإصلاح الديني أقوى لكان الإصلاح العلمي أول ما تعالجه، وتبذل فيه جهودها لأنه ألصق باسمها وأكثر ارتباطاً بحرفة رجالها، وبكفينا دليلاً على خطر الإصلاح العلمي وقيّمته أنّ أكبر عناصر الإصلاح الديني الذي لا يمترى في لزومه عاقل يستمدّ قوّته من شيء يسعّ علماً ومن أشياء تسعّ علماء"²

ولكن ما هو جوهر الإصلاح التعليمي في رأي البشير الإبراهيمي الذي يمكن أن يقفز بالمجتمع الجزائري إلى الأمام، والذي من خلاله يمكن أن نكون معاصرينا للمدنية المعاصرة ومستعدين في نفس الوقت لهويتنا الحقيقية. يجيبنا الإبراهيمي بقوله: "وإذا كان الإصلاح العلمي بمعناه العام المتعارف- وهو اختيار أقرب طرائق الإلقاء لذهن المتعلم واختيار أقرب الكتب لأداء المعنى الصحيح لفهمه وتدريبه على تطبيق النظريات على العمليات"³

¹ - عبد القادر زرق الراس، المناهج والأطوار التعليمية في الزوايا والكتاتيب القرآنية.

² - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص 144

³ - المصدر نفسه، ص 145

إنّ هذا العبارة المقتضبة توجز النظرية الإصلاحية للتعليم عند الإبراهيمي، فهي تنبني على اختيار الطرق التعليمية المناسبة لأذهان وعقول المتعلمين في مختلف أعمارهم، والابتعاد عن كل ما مجرّد ومستعصي ولهذا يجب اختيار الكتب التي تعلم العلم الصحيح، وتدريب الطلاب على تطبيق ما تعلموه في واقعهم الحياتي والعملي. ولا شك أنّ الإبراهيمي يعي أنّ زماننا هذا هو زمن العلوم التطبيقية والعلوم الاجتماعية التي تدرس الظواهر الطبيعية والاجتماعية على نحو عملي وتجريبي من أجل فهم أفضل لها، لغاية السيطرة عليها، فالتفكير الميتافيزيقي المجرّد أبقى البشرية تداور مكانها مجترة نفس الوسائل والأدوات الموروثة من الحضارات الشرقية القديمة، يتحسر الإبراهيمي على ضياع الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الكلام المسلمين في مسائل مجرّدة لم تجلب للمسلمين غير الفتن والتفرّق يقول الإبراهيمي: " فوا أسفاه على تلك الحملات العنيفة التي كانت جهادا ولكن في غير عدو. ووا لهفاه على ذلك النقع المثار ، وقد انجلى بغير فتح ولا غنيمة، ووا حسراته على ذلك الذكاء الذي كانت تكاد تتكشف له حجب الغيب، ذكاء أبي بكر الباقلاني، وفخر الدين الرازي، وأبي الهذيل، وابن المعلم، وقد ضاع فيما لا تعود على الإسلام منه عائدة ولا تنحبر له منه فائدة...ويمينا لو أنّ تلك الجهود التي تفرقت على الكلام تألفت على جهة عقلية أخرى لفتحت في العلم فتحا أغر زاهرا ولتعجلت به الفخر بالإسلام وأهله" ¹.

أي لو كانت جهود علماء الكلام منصبة حول العلوم التجريبية لعرفت الحضارة الإسلامية فتوحات معرفية في العلوم والتكنولوجيا تكون فخرا للمسلمين كما هو الشأن اليوم بالنسبة للعلم إلى الغرب. حتى ولو كان التعليم هو تعليم يُعلّم مواد الهوية كالعقيدة وعلوم السنة النبوية والفقه واللغة العربية والتاريخ... فإنّ التعليم الإسلامي لكي يتماشى مع العصر يجب أن يقطع مع التعليم الذي كان سائدا في القرون الوسطى سواء من حيث مضمونه كالابتعاد عن مناقشة مسائل علم الكلام ومسائل وقضايا التصوف، سواء من

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ص 32، 33

حيث منهجه بالابتعاد عن الحفظ والتكرار. يقول البشير الإبراهيمي في نص ثوري: "ومن الميزات التي لا يغفلها الباحث في عرض الحالة العلمية والموازنة بين الحالين، الاقتصار على أبواب العلم والرمي إلى أغراضه السديدة، وإطراح القشور وما لا محصول له من المباحث، وإيثار العلم المفهوم على العلم المحفوظ. وقد بدأ اتجاه التعليم يستقيم، وظهر من آثاره اختيار الكتب العامرة المملوءة علمًا، المعينة على تكوين الملكات، الخالية من النظريات المجردة والمماحكات اللفظية، ولا نذهب بعيدًا في الفرق بين هذه الحالة وبين ما قبلها، فإن بقايا الحالة القديمة لا تزال موجودة ولا تزال هي الغالبة في مجالس التدريس، وإنما نريد التنويه بهذه الحالة التي بدأت بشائرها تخفق في جِوَنِا العلمي، مغتبطين بها راجين لها النمو السريع والرقى المستمر"¹

يدعم البشير الإبراهيمي حججه بضرورة إصلاح التعليم استلهاما من أسلوبية القرآن الكريم، ذلك أنّ الخطاب القرآني دافع عن مسلمات العقيدة الإسلامية بأسلوب بسيط وبمصطلحات مفهومة للعامة والخاصة "فتوحيد الله مقرر في القرآن بأجدى بيان وأكمل برهان. وصفاته لا يطمع طامع أن يأتي في إثباتها بأكمل مما أتى به القرآن. وطريقة القرآن في التنزيه أقوم طريقة، وقد جرى عليها الصحابة فكانوا أكمل الناس توحيدًا مع أنهم لا يعرفون الجوهر والعرض. وهل يبقى زمانين ؟ ولا الكم ولا كيف بمعانها الفلسفية الدقيقة. وعلى هذا فما معنى إضاعة الوقت وإعنات النفس في معرفة هذا العلم المسمى بعلم الكلام."²

¹ -- البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص. 152

² - محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، ص 31

يبدو أنّ كلام البشير الإبراهيمي عن فلسفة التعليم هو راهني وسيبقى كذلك، لما تعيشه تجارب الإصلاح التعليمي في الوطن العربي، ويمكن أن نستخلص مبادئ الإصلاح التعليمي عند الشيخ في النقاط التالية:

- مبدأ أفضلية الفهم على الحفظ: بالتوجه نحو التعليم الذي يستند على تدريب الطلاب على الفهم وليس على الحفظ، والفهم هو الذي يخرج العلماء والقادة وكذا المواطن الفاعل الذي يستطيع حل مشكلاته لنفسه.

- مبدأ أفضلية اللفظ البسيط على اللفظ المجرد: فالمعلم والباحث لا بد أن يوظف مفردات بسيطة في تناول جميع القراء والمستمعين، لأنّ غاية الخطاب في النهاية هو الإفهام.

- مبدأ علاج قضايا الواقع والابتعاد عن القضايا المجردة: فالتجريد ومعالجة قضايا ميتافيزيقية هو سبب ضياع جهود علماء الكلام المسلمين بالرغم ما يمتلكونه من عقول عظيمة.

- اختيار الكتب المفيدة والتي تعلم المعاني الصحيحة والقيم الفاضلة.

4. الإصلاح الاجتماعي والديني:

1.4 العلم من أجل المجتمع:

يرى البشير الإبراهيمي أنّ الوضعية الحضارية التي تعرفها الجزائر مردها في الحقيقة إلى الاستعمار بمفهومه الواسع، فهناك استعمار مادي واستعمار معنوي ثقافي، وهذين الاستعمارين يشد الواحد منهما الآخر، ولا يدوم الواحد منهما إلا ببقاء الآخر، فالاستعمار المادي (العسكري) لكي يدوم لا بد أن يستند على فكر يُسند ويُدِّيمه. يشرح الإبراهيمي هذه الفكرة بقوله: "البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين أت من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه و يفسدان عليه دينه وديناه: استعمار

مادي وهو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثلّه مشايخ الصوفية، المؤثرون في الشعب المتغلغلون في جميع أوساطه المتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد خوفا من الله، والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، ومظهرهما معا تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة"¹

التحرير الحقيقي هو تحرير الإنسان من مفاهيم دينية واجتماعية سائدة، تعزز وترسخ الوضع الراهن والتي جاءت إمّا من الطرق الصوفية، وإمّا من المستعمر، مفاهيم مثل: كل شيء بالقدر والمكتوب، ولا قوة لنا نحن العرب على هزيمة فرنسا، الاكتفاء بالقليل من الرزق وانتظار الفرج من الله... والكثير من المفاهيم التي انتشرت في أوساط المجتمع الجزائري والتي أبدت وضعيته الاجتماعية المزرية وأعطت الأمان لفرنسا. القفز على هذه التحريفات المفهومية يكون بتعريف الإنسان المسلم بحقائق الدين الإسلامي كما وردت في القرآن والسنة، بذلك يكون التحرير الحقيقي، فالتحرير يتعلق بتحرير الوعي من هيمنة الطرقي الذي هو في خدمة المستعمر، ولكن الإصلاح لا يتوقف على إصلاح الأمور الدينية للناس، بل يتعلق الأمر أيضا بالمجال الاجتماعي، فالتخلف لا يُقيم فقط في مجال الوعي الديني، بل أيضا في الفضاء الاجتماعي، فالواحد منهما يؤثر في الآخر، فالوعي المنحرف ينتج سلوكا اجتماعيا منحرفا، كما أنّ الوعي الذي تلقى تعاليم صوفيه خرافية لا ينتج إلا سلوكا اجتماعيا سلبيا وخاملا. " فالإسلام دين واجتماع.. وأنّ

¹ - محمد البشير الإبراهيمي، من أنا، ص 44

الإصلاح الديني لا يتم إلا بالإصلاح الاجتماعي ولهذا الارتباط بين القسمين، فإن جمعية العلماء... علمت منذ تكوينها في الإصلاح المتلازمين، وهي تعلم أن المسلم لا يكون مسلماً حقيقياً مستقيماً في دينه على الطريقة حتى تستقيم اجتماعيته"¹

قلنا أن الإصلاح الحقيقي لا يجب أن يكون فقط على مستوى الوعي الديني، بل أيضاً يجب أن ينتقل إلى صعيد الوعي المجتمعي، فالفكرة إذا انحصرت على مستوى الفرد لن يكون لها أي تأثير إلا إذا تلقفها المجتمع، فتساهم في حركيته وفي تقدمه نحو الأمام، بهذا يريد الإبراهيمي أن يقطع مع تلك التصورات الدينية التي تخدم وجود الاستعمار، فالمستعمر يحبذ انتشار أفكار بعينها في المجتمع، لأنها تمنحه الأمان الإيديولوجي (بوجود شعب مسالم، ومهادن). فالإسلام الذي لا يدفع لنمو المجتمع وتحريره، هو إسلام مرفوض بالنسبة إلى الإبراهيمي، لأنه يفصل الإنسان عن محيطه الاجتماعي ويعطل من قدرات أفراده. يقول الإبراهيمي: "أريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم: قل لا اله إلا الله مُدْعنا طائعا، وصلِّ لربك أوَّاهاً، خاشعاً، وصم له مبتهلاً ضارعاً، وحج بيت الله أوَّاباً راجعاً، ثم كن ماشئنت، نهية للنَّاهب وغنيمة للغاصب، ومطية ذلولة للراكب. إن كان هذا ما يريدون فلا ولا قرة عين، وإنما نقول للمسلم: كن رجلاً عزيزاً، قوياً، عالماً، هادياً، محسناً، كسوباً، معطياً من نفسك، أخذاً لها، عارفاً بالحياة، سباقاً في ميادينها"².

من المؤكد أن الإبراهيمي يحارب بكل شراسة قيم الضعف والهوان التي كرسها الصوفية عبر عصور الانحطاط: كقابلية الإيمان بالخرافة، والركون إلى الكسل نتيجة لفهم خاطئ للمكتوب والقدر.. هذه المفاهيم هي التي أبدت الاستعمار في الجزائر وبقائه لمدة طويلة.

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص 283

² - المصدر نفسه، ص 283.

2.4 الاجتهاد الديني وأسس الاجتماع:

لم تكن الدولة وشؤونها بعيدة من تفكير واهتمامات الإبراهيمي، ففي كتاباته، لا نجده يتحدث فقط عن الدين، بل أيضا يتحدث عن الأدب، وعلم الاجتماع، والسياسية، والتاريخ، والفكر الفلسفي. وقد نقل إلينا البشير الإبراهيمي مفهوم الاجتماع من حقل علم الاجتماع إلى ميدان الفكر النهضوي، فالاجتماع ضروري بالنسبة إلى الحياة البشرية فمن خلاله تقيم شؤونها الدينية والدينيوية ولا غنى لها عنه " فإذن نحن محتاجون إلى تكوين اجتماع خاص تنتج عنه نهضة منظمة في جميع لوازم حياتنا القومية الخاصة وألزم هذه اللوازم أربعة: الدين والأخلاق والعلم والمال"¹ ولأجل قيام نهضة حقيقية ذات أسس متينة، لابد من الاهتمام بهذه الجوانب الأربعة لأنها بمثابة الأسس من البناء. وأول أساس لهذا البناء النهضوي هو الدين، ولكن ليس ذلك الدين الصوفي والطرفي الذي ينشر قيم التواكل والكسل والتخلف في المجتمع بل ذلك الذي يدفع بالأفراد نحو العمل بما يمنحهم من الإدراك الصحيح. يقول الإبراهيمي: "أما اللازم الأول وهو الدين فلا نبحت في درجة أهميته من بين اللوازم فذلك أمر ضروري، وإنما نقول إن اجتماعنا يقضي بإدخاله فيما تجب العناية به، وقد ظهرت في هذه السنين حركة توسمنا فيها لأول مرة أنها ستقوم بركن من أركان نهضتنا، وكانت هذه الحركة ترمي عن قوس الحقيقة بالرجوع بالدين إلى بساطته الأولى، وأنه دين الفطرة، وأنه لا يرجع في أحكامه إلا إلى النص القطعي من كتاب محكم أو سنة قولية، أو عملية متواترة

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص 51

وأنّ كل ما ألصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين وإن تراءت في صورة ما يقتضيه الدين".¹

ومعنى هذا أنّ تجاوز عصور الانحطاط وتكوين إنسان جديد يكون من خلال اقتلاع الأفكار الميتة التي جاءت من الفهم السيئ للدين ، والفهم الصحيح للدين يكون من خلال الرجوع به إلى بساطته الأولى قبل أن تحل فيه البدع والخرافات. ويشير الإبراهيمي إلى أمر في غاية الأهمية: وهي أنّ العقيدة الإسلامية والعبادة قد تم الفصل فيهما نهائيا في القرآن والسنة ولا يمكن الزيادة فيهما أو الإنقاص منهما. أمّا ما يتعلق بالمعاملات فيمكن الاجتهاد بما يتناسب والواقع الجديد " وأنّ هناك فرقا عظيما بين العقيدة والعبادة والمعاملة وأنّه لا مدخل لمعصوم في إثبات ما هو عقيدة، أو ما هو عبادة وأنّ المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر ونظام اجتماعهم العمراني وأنّ الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكل زمان ومكان أنّ يكون للزمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية وأنّ التاريخ شهد أنّ أسلافنا كانوا يراعون هذا المعنى في إدارتهم الإسلامية وفي سياستهم للشعوب الأخرى".²

إنّ نظرة البشير الإبراهيمي للدين هي نظرة محافظة ومجددة في نفس الوقت ، فهي تأخذ من العقيدة حرفيتها وتفهم من المعاملات خضوعها للزماني والمكاني والنسبي، ويمكن بالتالي الاجتهاد فيها، فالتجديد عند البشير الإبراهيمي لا يعني الاجتهاد في داخل المسلمات الدينية، بل يجب الإيمان بالمسلمات العقائدية في

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص52، 51.

² - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص52.

نقائها الأول وبعثها من جديد ، كما أنّ باب الاجتهاد مفتوح أمام المعاملات الاقتصادية وقوانين العمران. هذه النظرة العقلانية في علاقة الدين بالعمران تنبني على جعل المسلمات العقائدية بمنأى عن التحريف أو التلاعب أو التغيير، لأنها مقدّسة ومنصوص عليها بالنص القطعي، في المقابل هناك مجال الفقه الذي يسمح بوجود مساحة للاجتهاد لاستيعاب المعاملات وما يُستجد من الحياة الاجتماعية.

وبعد أن يشرح الإبراهيمي دور العلم والأخلاق في قيام الاجتماع المنتج والمثمر، يتكلم عن أهمية المال في النهضة ، لهذا نجده يتوجه بالنقد إلى مجموع القيم التي تركز الفقر والكسل والقناعة المرضية التي في غير مكانها، واللغو والاستغراق في القيل والقال، ذلك أنّ هذه السلوكيات أفقرت الفرد الجزائري وجعلته بعيدا من أن يحقق أهدافه. فالثروة تؤسّس للعلم وللعمران، والمال هو وسيلة لرفع مستوى الوعي الاجتماعي وللوضع المادي للأفراد ، لأجل ذلك يدعو الإبراهيمي إلى الاهتمام بكسب المال والاجتهاد في كسبه يقول: "وفي هذا المقام يجب ألا نغتر بالموجود، ولا نقنع بطرق الاستثمار التي قلدنا فيها غيرنا... وحاذاي أيها الإخوان من القناعة المُجِيعَة - فوراء هذه الأمة الضعيفة طوائف هي أقوى مراسا وأصح عزائم في المزاخمة على المال.. وأنّ سوق المال اليوم معترك أبطال وأن في جوانبه رماة ونحن الهدف، وأن مكان المال من الحياة مكان الوريد من البدن، وأنّ الزمان دار دورته وقضى الله أن يصبح المال والعلم سلاحين لا يطمع طامع في الحياة بدونهما " ¹

¹ - البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص55.

وهذا لا يعني الاستغراق بالكلية في جمع الأموال، والاهتمام بالحياة الحسية بل لا بد من فلسفة التوازن التي يحققها الإسلام، ذلك أن الإسلام هو الذي يحقق توازنا بين البعد الروحي والبعد المادي من الإنسان، فلا يميل لروحانية متشددة لدرجة إقصاء الجسد كما هو عليه الحال مع الديانة المسيحية والديانات الهندية والصينية كالبودية والكنفوشوسية والهندوسية، كما أن الإسلام لا يهمل البعد الروحي كما تهمله الديانة اليهودية والديانات الوثنية. يقول إبراهيمي: " هذا وإن ما يقصه التاريخ من اضطراب الأمم وتخطبها في سبيل الحياة، إنما هو ناشئ عن هذا السبب، وهو عدم التوفيق بين المطلبين، وبهذا التوفيق تتفاضل الأديان، وبه تتحقق حكمة وجود الإنسان وسطا بين أفق الحيوان وبين الملائكة الأعلى، وبه كانت الشريعة الإسلامية آخر الشرائع وكانت أكمل الشرائع، وكانت ناسخة لجميع الشرائع نسخا لا هوادة فيه، ولهذا عمّت دعوتها ولهذا خاطبت العالم البشري بلسان واحد وبلهجة واحدة، إن كانوا لا يعرفونها فإنهم سرعان ما يألفونها لأنها تدعو الأرواح لما يزكها وتدعو الأجسام لما يحفظها ويبقيها كل ذلك عن طريق الفطرة التي يشترك جميع الناس فيها"¹

5. خاتمة:

لا يمكننا أن نلم في هذا البحث المختصر بكل الجوانب التي فكر فيها البشير إبراهيمي، فقد حددنا لأنفسنا هدفا منذ البداية: أن نقتصر على الإشارة إلى أوليات مشروعه النهضوي والذي يمثل في الحقيقة مشروع النهضة عند جمعية العلماء المسلمين وقد تصورنا أن بناء النهضة عند الجمعية يقوم على نقاط ارتكاز أساسية يمكن تلخيصها في النقاط التالية: فنقطة الارتكاز الأولى، فهي على مستوى الهوية والتي تحقق معنى: استعادة مفهوم الأمة الجزائرية وذلك بربط

¹ - البشير إبراهيمي، الأعمال الكاملة، ص 110.

الجزائر بالأمّتين العربية والإسلامية كعلاقة انتماء وهوية، فالجزائر ليست أرض رومانية اغريقية، بل هي أرض عربية وإسلامية.

ونقطة الارتكاز الثانية لهذا المشروع: فهي إصلاح العقيدة وذلك من خلال: استرداد النص القرآني في نقاوته وطهارته والقطع مع التفسيرات الغنوصية والكلامية ونشر عقيدة سلف الأمة وإثباتاتها من الكتاب والسنة. وبذلك يتم تطهير العقل الفردي والمجتمعي من معطلاته الفكرية والعقدية التي تكبله عن التحرر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي

ونقطة ارتكاز مشروع النهضة الثالثة: تتمثل في التعاضد القائم بين الإصلاح العلمي والإصلاح الاجتماعي: -فعلى مستوى الإصلاح التعليمي يكون بالقطعية مع الأساليب التعليمية الجافة وتدريب الطلاب على الفهم، فإصلاح التعليم يؤدي إلى إصلاح المجتمع لمحاربة المفاهيم والتصورات البالية.

تدرك جمعية العلماء الجزائريين جيدا أنّ النهضة الحقيقية لا يمكن أن تقوم على خطب رنانة ودعوات سياسية تدغدغ العواطف بقدر ما تقوم على إحداث تغيير عميق بالنفوس للوصول إلى تغيير الواقع، هذا هو المعنى الذي كتبه جريدة الشهاب في 1928 عندما كتب صاحب المقال: " أعظم البناء وأصعبه ، وأبعده وأتعبه بناء الأمم المتهمة، والشعوب الدائرة، وإنما تبنى الأمم من أفرادها وتشيد بأبنائها، وإنما الأفراد بنفوسها وعقولها وقلوبها وسواعدها..... فإذا تطهرت تلك النفوس وتحررت تلك العقول واتحدت تلك القلوب وقويت تلك السواعد كانت الأفراد، فانبئ صرح الأمة قويا متينا قويا ، يضرب في التخوم ويناطح السحاب"¹

¹ - جريدة الشهاب، العدد، 149، السنة الرابعة، يوم 29 ماي 1928، ص 2

نعم، كانت فكرة تحرير العقول قبل تحرير البلاد في 1920 فكرة نظرية عند رواد الإصلاح الجزائري وكانت عبارة عن خطة عمل تنتظر التطبيق، ولكن هذه الفكرة النظرية عند الجمعية أصبحت واقعا ملموسا بحلول سنة 1954، فبعد تحرير عقول الجزائريين من الأفكار والعقائد الفاسدة كالقول بالجبر والقدر والمكتوب، التي كانت تمثل الإيديولوجية التبيرية لوجود فرنسا والتي منحت الأمان والطمأنينة لوجود المستعمر، كالقول أنّ فرنسا قدر من الله، والاعتراض على القدر كفر بالله، نقول تحولت الفكرة إلى واقع عملي، عندما أدرك الجزائريون أنّ فرنسا لم تكن قدرا بل كانت نتيجة لضعفهم الحضاري، ويمكن أنّ يغيروا قدرهم بأنفسهم، وهكذا اندلعت الثورة الجزائرية كنتيجة منطقية لهذا التحرير الذي كان على مستوى الوعي.

وقد نجد الكثير من الباحثين المؤدلجين ينكر دور جمعية العلماء المسلمين في الثورة الجزائرية، ولكن يكفي القليل من البحث الموضوعي، ليكشف أنّ مفجري وقادة الثورة قد تتلمذوا على يد جمعية العلماء فمصطفى بن بولعيد قد تأثر بالجو الديني الإصلاحي الذي أرسنه جمعية العلماء المسلمين في مدينة أريس¹ والكثير من خريجي مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانوا من قادة الثورة التحريرية فجماعة 22 الذين فجروا الثورة التحريرية 18 منهم درسوا في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والفروع الكشفية التي كانت تابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وجماعة الستة منهم اثنان من أبناء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهما العربي بن مهيدي ومصطفى بن بولعيد². ولا شك أنّ جزائر بعد الاستقلال تدين بالكثير لجمعية العلماء المسلمين، سواء على مستوى انتشار اللغة العربية أو بانتشار نقاوة العقيدة التي يؤمن بها أغلبية الشعب الجزائري.

6. قائمة المراجع:

- محمد البشير الإبراهيمي، أثار الشيخ البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة، جمع وتقديم نجله: احمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول (1929-1940) ، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي ، 1997.
- محمد البشير الإبراهيمي، الطرق الصوفية، (دت)، الجزائر، مكتبة الرضوان، 2008
- محمد البشير الإبراهيمي، من أنا ، (دت)، سطيف، الجزائر، منشورات الوطن، 2018
- عثماني مسعود ، مصطفى بن بولعيد (احداث ومواقف)، عين مليلة، الجزائر، دار الهدى، 2013.
- الذكرى السابعة والأربعون لاستشهاد البطل محمد العربي بن مهيدي، 3 مارس 1957- 3 مارس 2004 ، دار الهدى للطباعة والنشر، ملف pdf
- محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، ط10، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.

المجلات:

- جريدة الشهاب، العدد، 149، السنة الرابعة، يوم 29 ماي 1928، ص 2
- عبد القادر زرق الراس، المناهج والأطوار التعليمية في الزوايا والكتاتيب القرآنية، تحدي الجزائريين للاستعمار الفرنسي، مجلة الادبيات، المجلد 1، العدد2، سنة 2019

مواقع الكترونية:

موقع الدرر السنية، موقع: <https://www.dorar.net>

-سحر ناصر، لماذا تسقط الحضارات ؟، موقع إسلام أونلاين:

<https://islamonline.net>

- بروال جمال، نظرية الحضارة عند اسوالداشبنجلر – مقارنة تحليلية في دورة الحضارة-، نشر يوم: 1 جويلية 2019، تم الاطلاع عليه يوم: 24 ديسمبر 2022

- حسن آيت علجت، موقف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من الصوفية، نشر يوم: 1 نوفمبر 2014، تم الاطلاع يوم: 24 ديسمبر 2022، موقع: عبد الحميد بن باديس: <https://binbadis.net>، مركز جيل البحث العلمي، موقع: <https://jilrc.com>

- علي حمادوش، دور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الثورة التحريرية، موقع عبد الحميد ابن باديس، تم نشره في: 25 ديسمبر 2018، اطلع عليه يوم: 28 ديسمبر 2022، موقع: <https://binbadis.net>